المكتبة الورقية (٤٥)

الابْتِلَاءُ بِكُورُونَا

وَمَوْقِفُ المُؤمِنِ مِنْهُ –دَفْعاً وَرَفْعاً– .

كتبه الفقير إلى عفو الله

حمد أبو زيد العتيبي

فهرس الموضوعات

- المقدمة ٣
- الفائدة الأولى ٥
- الفائدة الثانية ٩
- الفائدة الثالثة ١١
- الفائدة الرابعة ١٣
- الفائدة الخامسة ١٦
- الفائدة السادسة ٢٦

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَالمؤمنُ الصَّادقُ مَنْ يُنْزِلُ كُلَّ مُهِمَّاتِهِ بِرَبِّهِ -تَعَالَى- الَّذِي خَلَقَهُ، فَهُوَ المتَصَرِّفُ فِيهِ كَوْناً وَشَرعاً ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٥٤].

وَابتلاءُ اللهِ -تَعَالَى- عِبَادَهُ بِهَذَا الوَبَاءِ المسَمَّى (بِكُورُونَا) دَاخِلٌ ضِمْنَ أَقْضِيَةِ اللهِ الكَونِيَّةِ الَّتِي لَهُ فِيهَا الحِكَمُ البَالِغَةُ فِي اختِبَارِ العِبَادِ وتمحيصِهِم.

فَالحمدُ للهِ -تَعَالَى- لا نُحصِي ثَنَاءً عَلَيهِ هُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ.

كُلُّ قَضَائِهِ للمُؤمِنِينَ الصَّابِرينَ الشَّاكِرِينَ عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ، وَبِهِ تَزدَادُ قُلُوبُهُم إِيمَاناً وَيَقِيناً حَتَّى تَصِلَ إِلَى الرِّضَا بِهِ رَبّاً وَمَعْبُوداً -إِذَا قَامُوا بِوَاجِبِ عُبُودِيَّتِهِم-.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ للمؤمنينَ السَّبيلَ الموصِلَةَ إِلَى ذَلِكَ مَعَ بيانِ الواجبِ عَليهِم فِي كتابِهِ الكريمِ وفِي سُنَّةِ نَبيِّهِ الأمينِ -صلَّى اللهُ تَعَالى عَليهِ وعلى آلِهِ وسَلَّمَ-.

وَمِنْ ذلكَ البيَانُ:

قَولُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [سورة البقرة].

والمؤمنُ الموفَّقُ هُوَ الَّذِي يُحسنُ الاستماعَ إِلَى كلامِ رَبِّهِ -تَعَالَى-، وَيتأمَّلُهُ وَيتدبَّرُهُ حَتَّى يَعرفَ مُرادَ اللهِ -تَعالَى- مِنهُ.

وَيعرفَ سُبُلَ مَصَالِحِهِ الدِّينيَّةِ وَالدُّنيويَّةِ، وَيعرفَ أسبابَ الشُّرُورِ الحسِّيَّةِ والمعنويَّةِ الَّتي تُضِرُّ دِينَهُ ودُنياهُ فَيَتَجَنَّبها.

وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ المخْتَصَرَةِ جَمْعٌ لأقوالِ أهلِ العلمِ تُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الآياتِ السَّابِقَةِ لَعَلَّنا نَعْقِلُ خِطَابَ اللهِ -تَعَالَى- وَنَسْعَدُ بِهِ فِي الدَّارَينِ، وَنَسْترشدُ بِهِ فِي مَعْرِفَةِ سُبُلِ الوقايَةِ مِنَ هَذَا الوَبَاءِ (كُورونا)، وَغَيرِهِ.

واللهُ الموَفِّقُ والمعِينُ لِكُلِّ خَيرٍ وَصَلاحٍ.

وَهذَا أوانُ الشُّرُوعِ بالمقصودِ؛ فَأَقُولُ:

مِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ:

أَوّلًا: قَوْلُهُ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ "الْبَلَاءُ أَصْلُهُ: الْمِحْنَةُ، وَمَعْنَى نَبْلُوكُم: نَمْتَحِنُكُمْ لِنَخْتَبِرَكُمْ هَلْ تَصْبِرُونَ عَلَى الْقَضَاءِ أَمْ لَا؟"[1]

وَحقيقةُ" البَلاءِ: المبالغةُ في الاختبارِ، كأنَّكَ أَبلَيْتَهُ وَأَخْلَقْتَهُ مِنْ كثرةِ مَا اختبرتَهُ بِهِ"[2]

قَالَ ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ –رَحِمَهُ اللهُ-: " وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى ذِكْرُهُ- أَتْبَاعَ رَسُولِهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ مُبْتَلِيهِمْ، وَمُمْتَحِنُهُمْ بِشَدَائِدَ مِنَ الْأُمُورِ لِيَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ"[3]

وَهذَا (الابتلاءُ) كائنٌ لا محالَةَ لِتَأكيدِ اللهِ –تَعَالَى- لَهُ بِالقَسَمِ.

---

١ (فتح القدير: ١/١٨٤).

٢ (تفسير الراغب الأصفهاني: ١/٣٥٠).

٣ (جامع البيان: ٢/٧٠٣).

قَالَ البَغَوِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ-: "أَيْ: وَلَنَخْتَبِرَنَّكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّامُ: لِجَوَابِ القسم، تَقْدِيرُهُ: وَاللَّهِ لِنَبْلُوَنَّكُمْ"[1].

"وَالجُمْلَةُ هُنَا مُؤَكَّدَةٌ بِثَلاثَةِ مَؤَكِّدَاتٍ: القَسَمِ، واللَّامِ، والنُّونِ"[2].

وَالحِكْمَةُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ التَّأْكِيدَاتِ لِيَتَيَقَّنَ العَبْدُ المؤمنُ أَنَّهُ مُبْتَلًى فَيُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ، واحتساب الأجر.

قَالَ القُرْطُبِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ-: " وَقِيلَ: أَعْلَمَهُمْ بِهَذَا لِيَكُونُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْهُ أَنَّهُ يُصِيبُهُمْ، فَيُوَطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ فَيَكُونُوا أَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الْجَزَعِ، وَفِيهِ تَعْجِيلُ ثَوَابِ اللهِ –تَعَالَى- عَلَى العَزْمِ وَتَوْطِينِ النَّفْسِ"[3].

وَالابْتِلَاءُ بِالنِّسْبَةِ (لِلْمُؤمِنِ الصَّابِر) نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ وَمِنْحَةٌ، وَفِي حَقِّ المنافِقِ نِقْمَةٌ وَسَخَطٌ "لِمَا فِي الْفِتَنِ مِنَ التَّمْحِيصِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ مِنَ الْمُسْلِمِ الْمُنَافِقِ، فَهِيَ تُظْهِرُ الثَّابِتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُطَمْئِنَ بِهِ، وَتَفْضَحُ

---

١ (معالم التنزيل: ١/١٦٩).

٢ (تفسير ابن عثيمين: ٢/١٧٨).

٣ (أحكام القرآن: ٢/١٧٣).

الْمُنَافِقَ الْمُرَائِي فِيهِ بِمَا تُظْهِرُ مِنْ زَلْزَالِهِ وَاضْطِرَابِهِ فِيمَا لَدَيْهِ، أَوِ انْقِلَابِهِ نَاكِصًا عَلَى عَقِبَيْهِ"[١].

"وَهَذِهِ سُنَّتُهُ -تَعَالَى- فِي عِبَادِهِ؛ لأَنَّ السَّرَاءَ لَو اسْتَمَرَّتْ لأَهْلِ الإِيمانِ، وَلَمْ يَحصُلْ مَعَهَا مِحْنَةٌ، لَحَصَلَ الاخْتِلاطُ الَّذِي هُوَ فَسَادٌ.

وَحِكْمَةُ اللهِ تَقْتَضِي تَمْييزَ أَهْلِ الخَيرِ مِنْ أَهْلِ الشَّرِ.

هَذِهِ فَائِدَةُ المِحَنِ، لا إِزَالَةُ مَا مَعَ المؤمِنِينَ مِنَ الإِيمانِ، وَلا رَدُّهُم عَنْ دِينِهِم، فَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَ المؤمِنِينَ"[٢].

- فَكَمْ للهِ -تَعَالَى- لِلمؤمنِ الصَّابرِ مِنْ نِعْمَةٍ فِي بلائِهِ، وَمِنْ رَحمةٍ فِي ابتلائِهِ، وَمِنْ زيادةِ يقينٍ واطمئنانٍ بأَقْدَارِهِ.
- يَستقبلُها بِعُبُوديَّةٍ قَبْلَهَا؛ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ -تَعَالَى-، وَالرِّضَا بأحكامِهِ القَدَرِيَّةِ، والاطمئنانِ بِحُسْنِ عاقبتِهَا، وَأَنَّها الدَّواءُ الَّذِي يُزِيلُ عَنِ العليلِ والمريضِ آفاتِ بَدَنِهِ حَتَّى يَسْلمَ قلبُهُ مِنَ الآفاتِ والعللِ.

---

١ (تفسير المنار: ٢/ ٢٨).

٢ (تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٥).

- قَالَ ابنُ عبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: " ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ هَكَذَا فَعَلَ بَأَنْبِيَائِهِ وَصَفْوَتِهِ، لِتَطِيبَ أَنْفُسُهُمْ»، فَقَالَ: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]"[1].

- وَفِي البَلاءِ مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

(رواه الترمذي: (٢٣٩٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

---

١ (تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٦٤).

ثَانِياً: قَوْلُهُ: ﴿بِشَيْءٍ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ -تَعَالَى- يُرِيدُ (بِالابتلاءِ) تَنْقِيَةَ المؤمنِ مِنْ آفاتِ قلبِهِ، وَشَهواتِهِ الفَاسِدَةِ. لا يُرِيدُ استئصالَهُ أو القضاءَ عَليهِ؛ لِذَلكَ (قَلَّلَ البَلاءَ)؛ لِيكُونَ -كالدَّواءِ الكَرِيهِ فِي طَعْمِهِ أَو الأليمِ فِي وَقْعِهِ- قَليلاً يُطيقُ المريضُ تَناولَهُ؛ فَيَرفعَ المرضَ ويَسْلَمَ البَدَنُ.

فقولُهُ: "﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أَيْ: بِشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنْهُمَا؛ لأَنَّهُ لَوْ ابْتَلاهُم بِالخَوْفِ كُلِّهِ، أَوْ الجُوعِ، لَهَلَكُوا. وَالمِحَنُ تُمَحِّصُ لا تُهْلِكُ"[1].

قَالَ الزَّجَّاجُ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَلَم يَقُلْ بِأَشْيَاءَ، فَإِنَّمَا جَاءَ عَلَى الاخْتِصَارِ، وَالمعَنَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّه: وَشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ، وَشَيْءٍ مِنَ الجُوعِ، وَشَيْءٍ مِنْ نَقْصِ الأَمْوَالِ وَالأَنْفسِ"[2].

فمعنى قَوْلِهِ: "﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أَيْ: بقليلٍ مِنْ ذَلكَ"[3].

قَالَ أَبو حَيَّانَ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِطَرَفٍ مِنْ كَذَا وَكَذَا"[4].

---

١ (تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٥).

٢ (معاني القرآن: ١/ ٢٣٠)، و(تفسير القرآن لابن أبي زمنين: ١/ ١٨٩).

٣ (تفسير ابن كثير: ١/ ٣٣٨)، و(أنوار التنزيل: ١/ ١١٤).

٤ (البحر المحيط: ٢/ ٥٥).

وَقَال أَبو السُّعُود –رَحِمَهُ اللهُ–: " أَيْ: بِقَلِيلٍ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ مَا وَقَاهُم عَنْهُ أَكْثَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَصَابَهُم بِأَلْفِ مَرَّةٍ، وَكَذَا مَا يُصِيبُ بِهِ مُعَانِدِيهِم"[1].

وَقَال القَاسِمِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–: " وليعلمُوا أَنَّهُ شيءٌ يسيرٌ، لَهُ عاقبةٌ حميدةٌ"[2].

وَمِنْ فَوائِدِ تَقْلِيلِ البَلاءِ –غَيْرُ مَا سَبَقَ–:

- لِيعلمَ المؤمنُ أنَّ كُلَّ بلاءٍ أصابَهُ وَإِنْ عَظُمَ فِي عَيْنِهِ فَفَوْقُهُ مَا هُو أَعْظَمُ مِنْهُ فَيَخِفُّ عَلَيهِ (البَلاءُ) الَّذِي هُوَ فِيهِ.
- وقَلَّلَ اللهُ البلاءَ لِيُرِيَ عِبادَهُ المؤمِنينَ أَنَّ رَحمتَهُ مَعَهُم فِي كُلِّ حَالٍ لا تُفَارِقُهُم؛ فَيَنْقَلِبَ فِي حَقِّهِم إلى خَيرٍ وَنِعْمَةٍ.
- وَفِي تَقْلِيلِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ العَبْدَ المؤمِنَ الصَّابِرَ يُؤْجَرُ عَلَى كُلِّ بَلاءٍ وَإِنْ كَانَ قَلِيلاً، كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا يُصِيبُ المسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (متفق عليه).

---

١ (إرشاد العقل السليم: ١/١٨٠)، ونحوه في: (السراج المنير للشربيني: ١/١٠٥).

٢ (محاسن التأويل: ١/٤٤١).

ثَالِثًا: قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ .

"هَذِهِ مَصَائِبُ خَمْسٌ؛ ...

١) قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿مِنَ الْخَوْفِ﴾ أَيْ: الذُّعْرِ؛ وَهُوَ شَامِلٌ لِلْخَوْفِ العَامِّ، وَالخَوْفِ الخَاصِّ؛

- الخَوْفُ العَامُّ: كَأَنْ تَكُونَ البِلادُ مُهَدَّدَةً بِعَدُوٍّ.
- وَالخَوْفُ الخَاصُّ: كَأَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ يُبْتَلَى بِنَفْسِهِ بِمَنْ يُخِيفُهُ وَيُرَوِّعُهُ.

٢) وَقَوْلُهُ -تَعَالَى: ﴿وَالْجُوعِ﴾ هُوَ خُلُوُّ البَطْنِ مِنَ الطَّعَامِ مَعَ شِدَّةِ اشْتِهَائِهِ، وَهُوَ ضِدُّ «الشِّبَعِ»، وَلَهُ أَسْبَابٌ؛

- السَّبَبُ الأَوَّلُ: قِلَّةُ الطَّعَامِ.
- وَالسَّبَبُ الثَّانِي: قِلَّةُ الْمَالِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الطَّعَامُ.
- وَالسَّبَبُ الثَّالِثُ: أَنْ يُصَابَ الإِنْسَانُ بِمَرَضٍ يَمْنَعُهُ مِنَ الطَّعَامِ؛ إِمَّا لِقِلَّةِ الشَّهِيَّةِ، وَإِمَّا لِلْعَجْزِ عَنِ اسْتِسَاغَتِهِ؛ لِسَدَدٍ فِي الحَلْقِ، أَوْ قُرُوحٍ فِي الْمَعِدَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَالجُوعُ لا يُدْرِكُ أَثَرَهُ إِلَّا مَنْ جَرَّبَهُ. بَلْ كُلُّ المصَائِبِ لا يُدْرِكُ أَثَرَهَا إِلَّا مَنْ جَرَّبَهَا. أَمَّا مَنْ لَمْ يُجَرِّبْ؛ فَإِنَّهُ لا يَشْعُرُ بِآثَارِ المصَائِبِ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ.

٣) قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ الأَمْوَالُ: جَمْعُ «مَالٍ»، وَهُوَ كُلُّ مَا يَتَمَوَّلُهُ الإِنْسَانُ مِنْ نُقُودٍ، وَمَتَاعٍ، وَحَيَوَانٍ.

٤) قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ جَمْعُ «نَفْسٍ»، وَالْمُرَادُ: الأَرْوَاحُ، كَالأَمْرَاضِ الفَتَّاكَةِ الَّتِي تَهْلَكُ بِهَا أُمَمٌ، مِثْلُ الطَّاعُونِ، وَغَيْرِهِ.

٥) قَوْلُهُ –تَعَالَى-: ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ جَمْعُ «ثَمَرَةٍ»، وَهِيَ مَا يُنْتَجُ مِنَ أَشْجَارِ النَّخِيلِ، وَالأَعْنَابِ، وَغَيْرِهِمَا؛ بِأَنْ تَأْتِيَ كَوَارِثُ تَنْقُصُ بِهَا هَذِهِ الثِّمَارُ، أَوْ تَتْلَفُ"[١].

***

١ (تفسير ابن عثيمين: ٢/١٧٨ – ١٧٩).

رَابِعاً: قَوْلُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ –رَحِمَهُ اللهُ–: "فَأَمَرَهُ اللَّهُ –تَعَالَى ذِكْرُهُ– بِأَنْ يَخُصَّ بِالْبِشَارَةِ عَلَى مَا يَمْتَحِنُهُمْ بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ أَهْلَ الصَّبْرِ الَّذِينَ وَصَفَ اللَّهُ صِفَتَهُمْ. وَأَصْلُ التَّبْشِيرِ: إِخْبَارُ الرَّجُلِ الرَّجُلَ الْخَبَرَ يَسُرُّهُ أَوْ يَسُوءُهُ لَمْ يَسْبِقْهُ بِهِ إِلَيْهِ غَيْرُهُ"[1].

وَالصَّابِرُونَ الْمُسْتَحِقُّونَ الْبِشَارَةَ "هُمُ الَّذِينَ صَارَ الصَّبْرُ لَهُمْ عَيْشاً وَرَاحَةً وَوَطَناً، يَتَلَذَّذُونَ بِالصَّبْرِ للهِ –تَعَالَى– عَلَى كُلِّ حَالٍ"[2].

وَهَذِهِ سُنَّةٌ يَغْفَلُ عَنْهَا كَثِيرُونَ، وَهِيَ (الْبِّشَارَةُ) لأهلِ البَلاءِ؛ فَالوَاجِبُ عَلَى المعلمينَ وَالنَّاصِحينَ اسْتِعمالُ التَّبْشِيرِ مَعَ المؤمنينَ الصَّابرينَ، وَتذكيرُهُم بجملَةٍ مِنَ الأمُورِ. مِنْ أَهَمِّهَا:

١– قُرْبُ الفَرَجِ مِنَ الرَّبِّ الكَرِيمِ الرَّحِيمِ؛ فَتَحْسُنُ بِاللهِ ظُنُونُهُم، وَيمتدُّ إِلَى رَحمةِ اللهِ رَجَاؤُهُم.

٢–وَحُسْنُ عَاقِبةِ المؤمنِ الصَّابرِ، واشتمالُهَا عَلَى الخيرِ الَّذِي لا يَظهرُ للعبدِ حالَ البَلاءِ. بَل يَكُونُ مِنْ مَطوِيَّاتِ الغَيْبِ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ –تَعَالَى–:

---

١ (جامع البيان: ٢/٧٠٦).

٢ (تفسير التستري، ص: ٣٢).

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [سورة الكهف: ٨٩ - ٩٠] الآيَاتِ.

قَالَ السّعْدِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ-: "أَنَّ هَذِهِ القَضَايا الَّتِي أَجْرَاهَا الخَضِرُ هِيَ قَدَرٌ مَحْضٌ أَجْرَاهَا اللهُ وجعلَهَا عَلَى يَدِ هَذَا العبدِ الصَّالِحِ، لِيَسْتَدِلَ العبادُ بِذَلِكَ عَلَى أَلْطافِهِ فِي أَقْضيتِهِ، وَأَنَّهُ يُقَدِّرُ عَلَى العبدِ أُموراً يَكْرَهُهَا جِدّاً، وَهِيَ صَلاحُ دينِه، كَمَا فِي قَضِيَّةِ الغُلامِ، أَوْ وَهِيَ صَلاحُ دُنياه كَمَا فِي قَضِيَّةِ السَّفِينَةِ، فَأَرَاهُم نَمُوذَجاً مِنْ لُطْفِهِ وَكَرَمِهِ، لِيَعْرِفُوا وَيَرْضَوا غاية الرضا بأقداره المكروهة"[1].

وَقَالَ ابْنُ القَيِّم –رَحِمَهُ اللهُ-: "وَلِذَلكَ كانَ الرِّضَا بَابُ اللهِ الأَعْظَمُ، وَجَنَّةُ الدُّنيَا، ومُسْتراحُ العَارفِينَ، وَحَياةُ المحبينَ، وَنَعِيمُ العَابدينَ، وَقُرَّةُ عُيُونِ المشتاقينَ"[2].

---

١ (تيسير الكريم الرحمن، ص: ٤٨٢).

٢ (مدارج السالكين: ١/٥٥٥).

وَقَالَ –أَيْضاً-: "وَالرِّضَا بِالقَضاءِ الكَونِيِّ القَدَرِيِّ الجَارِي عَلَى خِلافِ مُرَادِ العبدِ، ومحبَّتِهِ مِمَّا لا يُلائِمُهُ وَلا يَدخُلُ تَحتَ اختيارِهِ مُستَحَبٌّ وَهُوَ مِنْ مَقاماتِ أَهْلِ الإيمانِ"[١].

٣- وَعِظَمُ الأجْرِ مِنَ اللهِ -تَعَالَى- للمُؤمنِينَ الصَّابرينَ؛ مِنْ جَمِيلِ الثَّنَاءِ، وَكثيرِ العَطاءِ فِي الدَّارَين.

٤- وزيادةُ اليقينِ، واستنارةُ البَصيرةِ بالرِّضَا باللهِ –تَعَالَى- رَبّاً وَمَعبُوداً.

وَغيرُهَا مِنَ المبشِّرَاتِ.

وَمِنَ الخطأِ بمكانٍ مَا يفعلُهُ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ نقلِ الشَّائعاتِ بلا تَثبُّتٍ أَو بلا حِكمةٍ؛ فَتَنْتَشِرُ المخاوفُ بَينَ النَّاسِ، ويزيدُ ذُعْرُهُم وَخوفُهُم، وَتَحملُهُم عَلَى الجَزَعِ والقُنُوطِ، وَتُضْعِفُ إيمانَهُم بِاللهِ -تَعَالَى-.

وَالبِشَارَةُ مشتملةٌ عَلَى أشياءَ -ذَكَرهَا اللهُ فِي خِتَامِ الآياتِ-، وَهِيَ:

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ .

---

١ (مدارج السالكين: ١/٥٧٠).

خَامِساً: قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. فَيُؤمَرُ الدَّاعِي إلى اللهِ -تَعَالَى- بِتَبْشِيرِ الصَّابِرِينَ بِهَذِهِ المكرماتِ الثَّلاثِ:

- الأُولَى: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَالصَّلواتُ: رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ اللهِ -تَعَالَى- مشتملةٌ عَلَى: "عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ وَبَرَكَتِهِ وَتَشْرِيفِهِ إِيَّاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- الْغُفْرَانُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ"[١]. فَفِيهَا فَضِيلَتَانِ:

١. مَغفرةُ ذُنُوبِهِم، "وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ: غُفْرَانُهُ لِعِبَادِهِ، كَالَّذِي رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» يَعْنِي اغْفِرْ لَهُمْ"[٢].

- و"الثَّنَاءُ عَلَيهِم فِي الملأِ الأَعْلَى؛ وَالمعْنَى أَنَّ اللهَ يُثنِي عَلَى هَؤُلاءِ فِي الملأِ الأعْلَى رَفْعاً لِذكرِهِم، وَإِعْلاءً لِشَأْنِهِم"[٣].

---

١ (الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي: ٢/١٧٧).

٢ (جامع البيان: ٢/٧٠٦).

٣ (تفسير ابن عثيمين: ٢/١٨٢).

• الثَّانِيَة: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ "عَظِيمةٌ، وَمِنْ رَحمتِهِ إِيَّاهُم، أَنْ وَفَّقَهُم لِلصَّبْرِ الَّذِي يَنَالُونَ بِهِ كَمَالَ الأَجْرِ"[1].

وَمِنْ صُوَرِ الرَّحمةِ: تَقليلُ البَلاءِ، وَتَخفيفُهُ حَالَ نُزُولِه.

وَمِنْهَا: اشتمالُهُ عَلَى مَصَالِحِهِم مِنَ التَّوفيقِ للتَّوبةِ وَمُحاسبةِ النُّفُوسِ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَصرفَ اللهُ عَنهُم بِهِ مَا هُو أَكبرُ مِنْهُ وَأَشَدُّ عَلَيهِم.

وَمِنْهَا: إِلهامُهُم الصَّبْرَ عَلَيه؛ فَيَكُونُ كَفَّارَةً لَهُم، وَتُغْفَرُ بِذَلِكَ ذنوبُهُم.

وَمِنْهَا: أَنْ يَكُونَ احتسابُهُم ذَلِكَ سَبَباً فِي دُخُولِهِم الجَنَّةَ وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِم.

• الثَّالِثَة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ إِلَى العلمِ والعملِ بِهِ؛ فَيُكَمِّلُ اللهُ بَصائِرَهُم، وَيُنِيرُ طَرِيقَهُم لِنَيلِ مَصَالِحِهِم.

فَهُم "الَّذِينَ؛

- (عَرَفُوا الحَقَّ)، وَهُوَ فِي هَذَا الموضِعِ، عِلْمُهُم بِأَنَّهُم للهِ، وَأَنَّهُم إِلَيهِ رَاجِعُونَ.
- (وَعَمِلُوا بِهِ) وَهُوَ –هُنَا– صَبْرُهُم للهِ"[2].

---

1 (تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٥).

2 (تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٥).

• وَمِنْ هِدَايَتِهِمْ:

أولاً: أَنَّهُم يُوَفَّقُونَ لِلأَخْذِ بالأَسْبَابِ الَّتِي تَرْفَعُ عَنْهُم البَلاءَ، وأُصُولُهَا:

- الأَصْلُ الأَوَّلُ: الإيمانُ باللهِ -تَعَالَى-، والإيمانُ بأقْدَارِهِ، وَأَنَّ مَا شاءَ اللهُ كانَ ومَا لم يشأْ لم يكُنْ. كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ: ابنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يَعْنِي: يَهْدِ قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، ومَا أَخْطَأَهُ لم يَكُنْ لِيُصِيبَهُ[١].

وَعَنْ أَبِي ظِبيَانَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَلْقَمَةَ -رَحِمَهُ اللهُ-، فَقُرِئَ عِنْدَهُ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المصيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيُسَلِّمُ ذَلِكَ وَيَرْضَى"[٢].

---

١ (جامع البيان: ٢٣/٤٢١).

٢ (جامع البيان: ٢٣/٤٢١).

- الأَصْلُ الثَّانِي: التَّوْبَةُ وَالاسْتِغْفَارُ؛ والرُّجُوعُ إلى اللهِ -تَعَالَى- بالإنابةِ والطَّاعةِ، وَهذا الأصلُ من المقاصدِ الشَّرعيَّةِ لاختِبَارِ العبادِ، قَالَ اللهُ -تَعَالَى-: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَقَالَ ابْنُ زَيدٍ: ظهرَ الفسادُ في البَرِّ والبَحرِ، قَالَ: الذُّنُوبُ.

قُلْتُ: أَرَادَ أَنَّ الذَّنبَ سَبَبُ الفسادِ الَّذِي ظهرَ، وَإِنَّ الفسادَ الَّذِي ظهرَ هُو الذُّنُوبُ نَفْسُهَا، فَيَكونُ اللامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لامُ العاقبةِ والتَّعليلِ.

وعَلَى الأَوَّلِ: فالمرادُ بالفسادِ: النَّقصُ والشَّرُّ والآلامُ الَّتِي يُحدثُهَا اللهُ فِي الأرضِ بمعاصِي العبادِ؛ فَكُلَّمَا أحدَثُوا ذَنْباً أَحْدَثَ اللهُ لَهُم عُقُوبةً. كَمَا قَالَ بعضُ السَّلفِ: كُلَّمَا أحدَثْتُم ذَنْباً أَحْدَثَ اللهُ لَكُم مِنْ سُلْطَانِهِ عُقُوبةً.

وَالظَّاهِرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الفسادَ المرادُ بِهِ الذُّنُوبُ وَمُوجَبَاتُهَا.

وَيَدُلُّ عَلَيهِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فَهَذَا حَالُنَا دَائماً، أَذَاقَنَا اللهُ الشَّيْءَ اليسيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، فَلَو أذاقَنَا كُلَّ أعمالِنَا لما تَرَكَ عَلَى ظهرِهَا من دابَّةٍ"[1].

وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيْ: يَبْتَلِيهِمْ بِنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، اخْتِبَارًا مِنْهُ، وَمُجَازَاةً عَلَى صَنِيعِهِمْ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيْ: عَنِ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الْأَعْرَافِ: ١٦٨]"[2].

- الأَصْلُ الثَّالِثُ: الفَزَعُ إِلَى اللهِ -تَعَالَى- بِالتَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ؛ فَالمؤمِنُ الصَّابِرُ لَيْسَ لَهُ إلا رَبُّهُ مَلْجَأً وَمَصِيراً فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

كَمَا قَالَ إِمامُ الموحِّدِينَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيهِ السَّلامُ-: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ *

---

١ (التفسير القيم، ص: ٤٣٣).

٢ (تفسير ابن كثير: ٦/٣٢٠).

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء: ٧٨ – ٨٢].

رَبَّاهُ أَنتَ المُنَادَى بِهِ فِي كُلِّ نَازِلَةٍ

وَأَنْتَ مَلْجَأُ مَنْ ضَاقَتْ بِهِ الحِيَلُ

والبلاءُ سَمِيرُ الدُّعَاءِ ورفيقُهُ؛ يَحمِلُ كُلَّ الخلقِ عَلَيهِ مُؤمِنَهُم وَكافِرَهُم. فَأَمَّا المؤمنُ فيعملُ عَلَى تَهذِيبِ قَلْبِهِ وتنقِيَتِهِ حَتَّى يَخْلُصَ مِن غِشِّهِ وَدَخَلِهِ، ثُمَّ يُلْقِي بِهِ عَلَى بِسَاطِ الأُنْسِ بِذِكْرِ اللهِ –تَعَالَى–.

فَيَنْقَلِبُ البَلاءُ فِي حَقِّ المؤمنِ مِنْحَةً وَنِعْمَةً؛ لأَنَّهُ يُرْجِعُهُ إِلَى رَبِّهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، وَيُجَدِّدُ فِيهِ مَحَبَّتَهُ وَالإنابَةُ إِلَيهِ.

وَهَذِهِ الهدايةُ مِن أجلِّ الهِدَايَاتِ، وَأَعْلاهَا، وَأَنْفَعِهَا؛ فَهِيَ هدايةُ القلبِ إلى رَبِّهِ –تَعَالَى–. وَهِيَ مقصودُ الابتلاءِ، والامْتِحَانِ كَمَا مرَّ.

***

ثانياً: وَأَنَّهُم يُوَفَّقُونَ لِلأَخذِ بِالأَسْبَابِ الحِسِّيَّةِ الَّتِي يُقَرِّرُهَا المتَخَصِّصُونَ فِي تَجَاوزَ الأَزَمَاتِ وَالصِّعَابِ.

وَمِنْ ذَلك: أخذُهم بالحزمِ فِي تَجَنُّبِ المفاسدِ المضِرَّةِ؛ إذ الشَّريعةُ جاءَتْ بتقديمِ دَرْأِ المفاسدِ على جلْبِ المصالحِ، فالأخذُ بالتَّحرُّزاتِ الَّتِي تحفظُ أرواحَ النَّاسِ مَقْصدٌ مُهِمٌّ، وَهُوَ مِنْ أُصُولِ العِلاجِ النَّبَوِيِّ الَّتِي عَمِلَ بِهَا نَبيُّنا الكريمُ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

ومِمَّا وردَ فِي ذَلِكَ الحديثُ المتَّفقُ عَليهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما-: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ[1] لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما-: فَقَالَ عُمَرُ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: ادْعُ لِي المهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ، فَاخْتَلَفُوا.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ.

---

١ (بسَرْغ) "بفتح المهملة وسكون الراء بعدها ... مدينة افتتحها أبو عبيدة ... بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة" (فتح الباري).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ.

فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي.

ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ المهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ.

فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي.

ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ.

فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ.

فَنَادَى عُمَرُ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟

فَقَالَ عُمَرُ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟

نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ.

أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ[١]، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ.

---

١ (عُدْوتان) "بضم العين المهملة، وبكسرها –أيضا–، وسكون الدال المهملة: تثنية عدوة، وهو المكان المرتفع من الوادي، وهو شاطئه" (فتح الباري).

أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟

قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ- فَقَالَ:

إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:

«إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ».

قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- (في فتح الباري)-:

"وَفِي قِصَّةِ عُمَرَ مِنَ الفَوَائِدِ:

١) مشروعيَّةُ المناظرةِ، والاستشارةِ في النَّوازلِ، وفي الأحكامِ.

- وأَنَّ الاختلافَ لا يُوجبُ حُكْماً.
- وَأَنَّ الاتِّفاقَ هُوَ الَّذِي يُوجِبُهُ.
- وَأَنَّ الرُّجُوعَ عِنْدَ الاختلافِ إلى النَّصِّ.
- وَأَنَّ النَّصَّ يُسمَّى عِلْماً.

٢) وَأَنَّ الأُمُورَ كُلَّهَا تجري بِقَدَرِ اللهِ وَعِلْمِهِ.

٣) وَأَنَّ العَالِمَ قَدْ يَكُون عِندَهُ مَا لا يَكُونُ عِندَ غَيرِهِ مِمَّنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ.

٤) وَفِيهِ وُجُوبُ العملِ بخبرِ الوَاحدِ -وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الأدلَّةِ عَلَى ذَلِكَ-؛ لأَنَّ ذَلِكَ كانَ باتِّفاقِ أَهْلِ الحلِّ والعَقْدِ مِنَ الصَّحابَةِ، فَقَبِلُوه مِن عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوْفٍ وَلَمْ يَطلُبُوا مَعَهُ مُقَوِّياً.

٥) وَفيهِ التَّرجيحُ بِالأَكْثَرِ عَدداً، وَالأَكثرِ تَجْرِبَةً؛ لِرُجُوعِ عُمَرَ لِقَولِ مَشْيَخَةِ قُرَيشٍ مَعَ ما انْضَمَّ إليهم مِمَّنْ وافقَ رأيَهُم مِنَ المهاجرِينَ والأنْصَارِ؛ فَإِنَّ مجموعَ ذلكَ أكثرُ مِن عددِ مَنْ خَالفَهُ مِنْ كُلِّ المهاجرِينَ والأَنْصَارِ.

- وَوَازَنَ مَا عندَ الَّذِينَ خالَفُوا ذلك مِنْ مَزيدٍ فِي العلمِ والدِّينِ مَا عِنْدَ المشيخةِ مِنَ السِّنِّ والتَّجَارِبِ، فَلَمَّا تعادلُوا من هذِهِ الحيثيَّةِ رجَّحَ بالكثرةِ.

- ووافقَ اجتهادُهُ النَّصَّ؛ فَلِذَلِكَ حَمِدَ اللهَ -تَعَالَى- عَلى توفيقِهِ لذلِكَ.

❋❋❋

سَادِساً: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

فِيهِ سُرعةُ إقرارِهِم –بِقُلُوبِهِم وَأَلْسِنَتِهِم– عِندَ المصيبةِ (بِالإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ)؛ لكمالِ يقينِهِم وَثَبَاتِ إيمانِهِم؛ فَلا تزيدُهُم المِحَنُ إلا بصيرةً وَعِلْماً.

- الإيمانُ باللهِ عِندَ قَوْلِهِم ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ "أَيْ: نحنُ وأموالُنَا للَّهِ، ونحنُ عَبِيدُهُ يَصْنعُ بِنَا مَا شَاءَ، وَفِي ذَلكَ صلاحٌ لَنَا وخَيرٌ"[1].
- وَالإيمانُ باليومِ الآخرِ عِندَ قَوْلِهِم ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ "أَيْ: نحنُ مُصَدِّقُونَ بِأَنَّا نُبْعَثُ ونُعْطَى الثَّوابَ عَلَى تَصْديقِنَا، وَالصَّبْرِ عَلَى مَا ابتَلَانَا بِهِ"[2].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ –رَحِمَهُ اللهُ–: " أَيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَحْدَثَ لَهُمْ ذَلِكَ اعْتِرَافَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَبِيدُهُ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ"[3].

---

١ (معاني القرآن للزجاج: ١/٢٣١).

٢ (نفس المصدر: ١/٢٣١).

٣ (تفسير القرآن العظيم: ١/٣٣٨).

وَقَالَ السّعْدِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–:

"﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أَيْ: مَمْلُوكُونَ للهِ، مُدَبَّرُونَ تَحتَ أَمْرِهِ وَتَصْرِيفِهِ؛ فَلَيسَ لَنَا مِن أنفسِنَا وأموالِنَا شَيْءٌ، فَإذَا ابتلانَا بِشَيْءٍ مِنهَا، فَقَدْ تَصَرَّفَ أرحمُ الرَّاحِمِينَ، بمماليكِهِ وَأَمْوَالِهِم، فَلا اعْتِراضَ عَلَيهِ، بَلْ مِنْ كَمَالِ عُبُودِيَّةِ العبدِ، عِلْمُهُ بأَنَّ وقوعَ البَلِيَّةِ مِنَ المالكِ الحكيمِ، الَّذِي أَرْحَمُ بِعَبدِهِ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَيُوجِبُ لَهُ ذلك الرِّضَا عَنِ اللهِ، والشُّكرَ له عَلَى تدبيرِهِ، لِمَا هُو خَيرٌ لِعَبدِهِ، وَإِنْ لم يَشعُرْ بذلك.

وَمَعَ أَنَّنَا مملوكونَ للهِ، فَإِنَّا إِلَيهِ راجعونَ يَومَ المعادِ، فَمُجَازٍ كُلَّ عاملٍ بعملِهِ، فَإِنْ صبرْنَا واحتسبْنَا وَجَدْنَا أَجْرَنَا مَوْفُوراً عِندَهُ، وَإِنْ جَزَعْنَا وَسَخِطْنَا، لَم يكُنَ حَظُّنَا إلا السُّخْطَ وَفَواتَ الأجرِ.

فكونُ العبدِ للهِ، وراجعٌ إِلَيهِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الصَّبْرِ"[1].

واللهُ الحافِظُ الوَاقِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَشَرٍّ،

بِهِ العِصْمَةُ وَعَلَيهِ التَّوَكُّلُ، وَبِيَدِهِ الأَمْرُ كُلُّهُ،

لا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلا رَبَّ سِوَاهُ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

---

١ (تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٥).